MANHAG.NET

تفسير سورة البلد

الشيخ

هاني حلمي



أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم،



الحمد لله وكفى، وصلى الله وسلم وبارك على النبي المصطفى وآله المستكملين الشرفَ
ثم أما بعد،،
فأسأل الله تبارك وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا ينفعنا
اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا بالإسلام حتى نلقاك عليه
اللهم يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين مُنَّ علينا في يومنا هذا بأن تُعتق رقابنا من النار
وتتقبل منا عملنا الصالح إنك بالإجابة جدير، نِعم المولى ونعم النصير.

تفسير سورة البلد

أحبتي.. من باب فك أغلال القلوب نتدبَّر كلام ربنا المعبود، من باب أن نتعامل مع القرآن بشكل مختلف، من باب {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ ...} [الشعراء: 193، 194] تعالوا نحقق الأمر الرباني لنا بتدبر معاني القرآن { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } [المؤمنون: 68] { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } [محمد: 24].

تعالوا نعيش هذه اللحظات، نتأمل هذه الآيات البينات من سورة البلد..

وهذة السورة لها من الأهمية ما لها؛ فهي سورة تشرح لنا كيفية التعامل مع العقبات التي تكون في الطريق إلى الله تبارك وتعالى، وأعظم هذه العقبات هي عقبة النفس.

سورة البلد سورة مكية عدد آيتاها عشرون، اشتملت هذه السورة على تعظيم البلد الحرام والرسول الأمين، وتكريم آدم وذريته، وبيان أن الإنسان خُلق في معاناة ومشقة في حمله وولادته ورسالته في الحياة وحسابه في الآخرة.

وفي آخر هذه السورة جابهت بعض المشركين وكشفت سوء أفعالهم، ورسمت الطريق الأمثل للوصول إلى رضوان الله تبارك وتعالى.

تسمية السورة

هذه السورة سُميت بهذا الاسم سورة البلد قالوا لأن الله أقسم في أولها بالبلد الحرام.

قال ابن عاشور: وهي تسمية إما على حكاية اللفظ الواقع في أولها سورة البلد {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: 1] وإما لإرادة البلد المعروف وهي مكة، وقد جاء بالقرآن في غير ما موضع ذكر مكة وتلقيبها بالبلد.

إذًا هذه السورة عرفنا أنها مكية، عرفنا أن أغراض هذه السورة ومقاصدها اشتملت على معاني ومن أهم ذلك كما بينت كيفية الوصول إلى رضوان الله تعالى وكيفية إقتحام عقبة النفس.

سُميت بهذا الاسم لأنه ورد في أولها ذكر البلد، وهذه اللفظة أطلقت في القرآن وأريد بها مكة، هذه السورة من حيث النزول هي السورة الخامسة والثلاثون من حيث النزول، نَزَل قبلها سورة ق ونزل بعدها سورة الطارق.

قال الله تبارك وتعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (20)} [البلد: 1: 20]

قراءات السورة

هذه السورة ورد بعض الألفاظ فيها في قراءات أخر {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} هكذا بفتح السين و قرأ ذلك ابن عامر وعاصم وحمزة، وقرأ باقي القراء العشرة: أَيَحْسِبُ؛ أَيَحْسِبُ أن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ.

وفي قوله تبارك وتعالى {أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا} قرأ أبو جعفر بتشديد الباء؛ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَّدًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي؛ فَكَ رَقَبَةً، على معنى أنها فعل وليس اسم.

وليس فَكُّ رَقَبَةٍ كما هي في باقي القراءات، فَكَ رقبةً.. أو أطعم، وليس إطعام، أو أطعم في يوم ذي مسغبة، هذا ما ورد فيها من قراءات، وأيضًا قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف؛ مؤصدة بتحقيق الهمزة الساكنة مؤصدة، وقرأ باقي القراء العشرة موصدة.. نارٌ مؤصدة كذا في قراءة حفص، وباقي القراء غير حفص وحمزة ويعقوب يقرأها موصدة، عليهم نار موصدة.

سورة البلد موضوعها كما بينا يدور حول الابتلاء الذي هو الغاية من خلق الإنسان، والذي يستتبع التكليف.. الله سبحانه وتعالى ابتلانا أي اختبرنا .. وهذا الابتلاء مقتضاه أنه كلفنا بأشياء، واختبرنا فيها، وجعل الجزاء لمن أحسن، كما بين سبحانه وتعالى في هذه السورة

الكريمة {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} صاروا من أهل اليمين الذين هم من أهل الجنة، أما الذين لم ينجحوا في هذا الاختبار وهو الاختبار الأخطر؛ اختبار النفس فإن {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ}.

تدبر معاني ورسائل السورة

تعالوا نتدبر آيات هذه السورة الكريمة آية آية، وننظر ما فيها من معاني ونتدبر ما فيها من رسائل إلينا ونتعبد الله عز وجل بذلك لعلها تفتح أغلاق قلوبنا..

شرف المكان

قال الله جل وعلا: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: 1] قالوا معناه على أصح الوجوه أقسم بهذا البلد، ولا هنا دخلت توكيدًا..{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} وكأن قائل قال بشيء، قال أيقسم بهذا البلد ؟

فقال الله لا؛ أقسم بهذا البلد، فهذا البلد أقسم الله عز وجل به لشرفه وعظمه، والبلد كما قال ابن عباس هو مكة، وقال مجاهد الحرم كله.. البلد مكة أو الحرم أعظم بقاع الأرض، وأحب بقاع الأرض إلى الله.

ولهذا بُعث منها رسول الله ﷺ الذي هو سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه، فجدير بهذا البلد الأمين أن يُقسَم به، ولكن نحن لا نقسم به لأنه مخلوق.

وكما تعرفون أن النبي ﷺ نهانا عن الحلف بغير الله وقال: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" [الألباني، صحيح الترغيب(2952)]. أما الله سبحانه وتعالى فإنه يقسم بما شاء.

لاحظوا هذا المعنى جيدًا ابتدأنا بالبلد؛ البلد أشرف البقاع.. اكتبوا بجانب هذه الآية شرف المكان؛ شرف المكان أشرف البقاع.

شرف الزمان

ثم قال: {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: 2] قال ابن عباس ومجاهد: حل لك ما صنعته في هذا البلد من قتال.. رغم إنها بلد حرام إلا أنه قد حل لك القتال.

والمعنى إن الله وعد نبيه أن يفتح مكة على يديه، بأن يحلها له، فيكون فيها حِلا، هنا وعد من الله بفتح مكة وهو في مكة.. إنها بشارة.. وهكذا الله وعد وتحقق هذا الوعد ربما بسنوات بعد ذلك وهنا تأخذ معنى في حسن الرجاء.

انظر الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} فوعده بفتحها بأن يحلها له، وهذا كان قبل فتحها ربما بسنوات كثيرة تتعدي العشر أو الخمسة عشر سنة.. وهكذا كن دائمًا على الرجاء.

أذَّن سيدنا إبراهيم بالحج وكانت الإجابة بعد ذلك بسنوات طوال، وهكذا كونوا على الظن بإجابة الدعاء، والظن الحسن بالله تبارك وتعالى، ولا تتعجلوا قطف الثمار.

وقال الحسن وعطاء: أنت حل؛ أي محل في هذا البلد غير محرم، وهذا في دخولك عام الفتح وفيه نفس المعنى المشار إليه بأن المستقبل لهذا الدين.

وقال الثعلبي: إن المشركين بهذا البلد يستحلون إخراجك وقتلك، ويُحرِّمون قتل الصيد.. فسبحان الله يستحلون إخراجك وقتلك، ويحرمون قتل الصيد..

كما قالها ابن عباس للخوارج حينما كان منهم ما كان وجاءه أحدهم يسأل في مسألة عن البق، عن بعض الحشرات وهل دمه نجس أم لا؟ وهم الذين كان منهم ما كان من فتن شديدة، وما كان في مقتل الحسن والحسين في كربلاء.. فقال: تستبيحون دم ابن بنت رسول الله ﷺ وتأتون تسألون في مثل هذه المسائل؟ هل دم البق نجس أم لا؟

فهكذا المشركون هنا يستحلون إخراج النبي ﷺ ويستحلون قتله ويحرمون قتل الصيد، وهذه مسألة الانفصام التي كثيرًا ما يبتلي بها الناس في هذا الزمان.

وهناك معنى رابع؛ {وَأَنتَ حِلٌّ} أي حال، أي نازل في هذا البلد، وأنت حالٌ.. هنا نتوقف وقفة؛ أي في زمن حلولك بهذا البلد، وهذا زمان من أعظم الزمان، فهذا زمان شريف.

وعلى هذا فإذا كانت {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} تدل علي شرف المكان، فإن {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} وأنت حال نازل في هذا البلد لأنها نزلت عليه وهو بمكه، ولم يفرض عليه الأحرام، ولم يؤذن له في القتال، فإن هذا يدل على شرف الزمان؛ زمان النبي ﷺ.

اللهم قد حرمنا صحبته فلا تحرمنا رفقته يوم القيامة.

{وَأَنتَ حِلٌّ} دال على شرف الزمان فيكون اقسام الله تعالى بهذا البلد مقيدًا بما إذا كان حلا للنبي ﷺ عام الفتح، لأنها في ذلك اليوم تزداد شرفاً إلى شرفها، فشرف المكان وشرف الزمان اجتمعا في وجود النبي ﷺ في مكة وفي حرمة مكة.

شرف الشخص

ثم قال جلَّ وعلا: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} [البلد: 3]

قال مجاهد وقتادة: آدم وما ولد، الوالد المقصود به آدم، وما ولد ذريته.

وقال ابو عمران الجوني: الوالد إبراهيم وما ولد، ويكون المقصد هنا؛ الوالد إبراهيم أبو الأنبياء، وما ولد من الأنبياء.

وقال الزجاج: بل هو عام في كل والد وفي كل ولد.

وقال ابن عباس: الوالد هو الذي يلد، وما ولد هو العاقر الذي لا يلد، فجمع بين هذا وذاك.

ويُحتمل وهذا القول الذي نتوقف عنده؛ أن الوالد هو النبيﷺ، أما قال لنا النبيﷺ: " إنما أنا لكم مَثَل الوالد، أعلمكم" [حسن صحيح، الألباني، صحيح النسائي(40)]

ألم يقل لبشر بن عقربة: أما تعلم أني أنا أبوك وأن عائشة أمك، ألم تأتي في القراءة قراءة ابن مسعود المفسرة (وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) فوالدنا نبيناﷺ، وما ولد المقصود به أمة النبيﷺ.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يشير إلى شرف الشخص.. وهذه الأمور الثلاثة التي يُضاعف بها العمل يا عباد الله؛ شرف الزمان، وشرف المكان، وشرف الشخص.

{الْبَلَدِ}: البلد الحرام.

{وَأَنتَ حِلٌّ}: في زمان النبيﷺ أشرف الأزمان.

{وَوَالِدٍ}: النبيﷺ أو آدم.

{وَمَا وَلَدَ}: من الذرية أو أمة النبيﷺ إشارة إلى شرف الشخص.

وهو أشرف الأشخاص بأبي هو وأمي ونفسي رسول اللهﷺ، فهذه الأمور الثلاثة التي يُضاعف بها الأعمال شرف الزمان، وشرف المكان، وشرف الشخص.

وجاءت في مفتتح هذه السورة، ولا شك أن ثمة علاقة ما بين القسَم وما بين المقسم عليه، هناك علاقة بين القسم والمقسم عليه فما الذي أقسم عليه؟

مكابدة النفس

القسم هنا بقوله تبارك وتعالى جاء لقوله {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد:4]

أي أنه في كبد في خلقه؛ خُلق من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، يتكبد في الخلق، ومأخوذ من تكبد الدم وهو غلظه، ومن هذه العلقة ثم المضغة تكون بعد ذلك هذا الإنسان، فهو في كبد؛ مأخوذ من الكبد الذي هو دم قد غلظ.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} خُلِقَ هذا الإنسان على هذه الشاكلة، وقيل في كبد في اعتدال، وقيل في كبد أي في شدة ومكابدة لأمور الدنيا والآخرة، فكبد هنا بمعنى مكابدة أي بمعنى معاناة، فهو في حمله {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} [الأحقاف: 15] وهو يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، يكابد الشكر على السراء، يكابد الصبر على الضراء، هو في كبد هذا الإنسان.

فالمكابدة هنا أي شيء أعظم معاناة للإنسان، سبحان الملك هذه السورة حينما تقول {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} ويقسم الله عز وجل على هذا المعنى يأتي بيانه في السورة التي تليها في ترتيب المصحف؛ حين يقول الله جل وعلا وسوف نتوقف عند هذا المعنى في مدارستها سورة الشمس، حين يقول الله جل وعلا: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: 9، 10]

وهنا أيضًا في هذه السورة بيان إلى أن المعنى المراد في المكابدة هي مكابدة النفس لأن الله عز وجل بعد ذلك سيقول {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} [البلد: 11] والعقبة هي عقبة النفس، أعظم عقبة.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ} [البلد: 12، 13] هنا ستأتي هذه المعاني لتؤكد لنا أن المكابدة مكابدة النفس، فيأيها الإنسان إنك مكابد نفسك، إنك في معاناة في مجاهدة نفسك، إنك حين خُلقت للابتلاء خُلقت في كبد، في معاناة في كيفية ترويض نفسك.

فإذا كان الإنسان قد خلقه الله عز وجل في أحسن تقويم، وكان هذا يستدعي أن يكون مسكنه في جنات النعيم، لأن المسكن ملائم لصفة حسن تقويمه، إلا أن الرب تبارك وتعالى جعله ضمن ظروفٍ في هذه الحياة يعيشها في كبد، والرب هو العليم القدير الحكيم.

فلا بد أن يكون هذا لحكمة جليلة اقتضتها إرادة الرب تبارك وتعالى والذي يتدبر هذا المعنى جيدًا يهتدي إلى أن هذه الحياة ذات زمن قصير جدًا، زمن الحياة بالنسبة إلى الآخرة زمن قصير جدًا، وحين يتفكر في هذا الإنسان ويدرك أن الدنيا دار اختبار، دار امتحان.

وبدهي أن الامتحان لا يتحقق إلا في ظروف يكابد فيها الممتحَن مشقات ومتاعب، فَهِمَ بذلك العبد لماذا ابتُلي بهذه المعاناة؟

أولاً؛ حتى لا يركن بقلبه على الدنيا، حتى يعلم أنها دار مشاق وأنها دار متاعب، أما الراحة ففي أول قدم تضعها في الجنة.

إننا ينبغي أن نفهم حقيقة هذا الامتحان، وبعد هذا التنبيه المشدد على هذه الظاهرة ذات الدلالة العميقة تأتي السورة في آخرها ببيان الصوارف التي تصرف النفس عن الإيمان باليوم الآخر، وهو إما الاغترار بيوم الدين، وهو إما توهم بعض المكذبين أنه ليس عليه رقيب.

تتأمل هذا المعنى كما قلنا في خواتيم هذه السورة.. ولكنَّا الآن علينا أن نضع هذا المعنى نصب العين وما الرابط بين القسم والمقسم عليه.

ما الرابط يا جماعة بين {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} ؟ قلنا مكابدة النفس.

مكابدة النفس لأي شيء؟ لبلوغ أعظم الدرجات، لكونه عند الله وجيهًا حتى تكون شريفًا، أشرف الناس عند الله، كما أن هناك أشرف البلدان، وأشرف الأزمان، وأشرف الأشخاص، فإذا أردت يا عبد الله الشرف فالشرف الحقيقي حين تكابد هذه النفس في الله.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} مؤكدة بثلاثة مؤكدات القسم واللام وقد. فهذا الخبر الإلهي المؤكد بأجل قسم على أن الإنسان محاط منذ نشأته إلى نهاية أمره بالنصب، فمن ابتغى الراحة في الدنيا فهو سفيه، لأنه لا يعرف حقيقة الدنيا.

الذي يفهم أنه سيرتاح في الدنيا بكثرة المال، الذي يفهم أن سيرتاح في الدنيا بكثرة المتاع، الذي يفهم أنه عندما يتزوج سيرتاح، أنه عندما يولد له أولاد سيرتاح، أنه عندما يكون عنده كذا وكذا.. هذا أغلب تفكير الناس يعمل وينصب في جمع الدنيا ليرتاح، ليس ثمة راحة طالما هناك شيطان طالما هناك نفس..

لذلك قال الله تبارك وتعالى بعد ذلك: {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} [البلد: 5]

قال السُدي: أيحسب الإنسان أن لن يقدر عليه الله فيبعثه بعد الموت.

وقال الحسن: أيحسب الإنسان أن لن يقدر عليه أحد بأخذ ماله.

أيحسب أن لن يذله أحد. لأن القدرة عليه ذل له، هذه معاني، أتحسب ذلك؟ أتحسب بجمع المال أنك لن يقدر عليك أحد؟ ولن يستطيع أحد أن يأخذ من مالك؟ أو أن يأخذ روحك التي تضن بها؟ فالإنسان يضن بنفسه، ويضن بماله.

والله {اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ} [التوبة: 111]، فيقول الله جل وعلا مستفهمًا {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} فيالسفه عقول أولئك البشر الذين يظنون أنه لا قادر عليهم.

أليس الله بقادر على أن يحي الموتى، أليس الله على كل شيء قدير، أليست قدرة الله عز وجل مهيمنة، أليس هو القاهر فوق عباده، {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}.

{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا} [البلد: 6] أي كثيرًا مجتمعًا بعضه على بعض.. ويحتمل أهلكت مالاً قديمًا، فانفقت مالاً كثيرًا.

قالوا: المراد أهلكت مالاً كثيرًا في عداوة الإسلام، فيا أعداء الإسلام في هذا الزمان يا من تنافحون وتكافحون من أجل عدم تطبيق شريعة رب العالمين تقولون أهلكنا مالاً لبدًا؟ أيحسبون أن الله عز وجل غير مطلع على ما في سرائركم؟ {أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ} [البلد: 7]

ويحتمل معنًا ثانيًا؛ أن المعنى {أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا} أي أنفقت مالاً كثيرًا في سبيل الله.

وكأنه يمن على الله، وكأنه يندم على ما ينفق في سبيل الله، والله جل وعلا في أول البعثة قال للنبيﷺ {وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} [المدثر: 6]

والله جل وعلا بعد ذلك أكد على هذا المعنى في سورة البقرة التي هي سورة مدنية حين قال {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [البقرة: 264] فهذا الإنسان الذي يبخل بنفسه وجهده، ويبخل بماله يحسب أن لن يقدر عليه أحد؟ أن الله غير قادر على أن يسلبه هذا المال؟

ولماذا جاء ذكر ذلك؟ وما العلاقة أصلاً بهذا وما كان قبله في ذكر الكبد؟ لأن مكابدة النفس في البذل من أعظم الأشياء، الإنسان بخيل بماله، بخيل بجهده وطاقته.. بخيل وإذا رزق العبد بالأولاد زاد جبنه وزاد بخله، فالولد " .. مجبنة مبخلة محزنة " [الألباني، صحيح الجامع(7160)] كما بين النبيﷺ.

فتراه بعد ذلك {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا} يا ليتني لم أنفق مالي يا ليتني لم أنفق كذا وكذا فيقول الله جل وعلا {أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ} أيحسب الإنسان أن الله لا يراه؟

أيحسب الإنسان أنه حين بذل لله أن الله لن يجازيه عن إحسانه إحسانًا ؟ أيحسب أن لم يره أحد من الناس فيما أنفقه ؟ أيحسب أن لم يظهر ما فعله أن لن يُآخذ به ؟ {أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ} حينما قال ما قال، حينما مَنَّ على الله، حين بخل على الله.

{أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} كان ذلك هو سبب؛ سبب نجاتك من عقبة نفسك، حين بذلت لله، ولكن حين مننت على الله؛ زادت معاناتك، وزاد أسرك، وصرت سجين النفس، وصارت معبوداتك أهواءك أهواء النفس {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [الجاثية: 23] فصرت سجينًا يا عبد الله.

عدد نِعَم الله

فإذا أردت أن تخلص نفسك من أسر نفسك، إذا أردت أن تجاهد نفسك في الله فاسمع..

أولاً: عدد نِعَم الله حينها افهم إنك حين تبذل لا تبذل تكرماً، وإنما تبذل شكرًا، وهذا يجب عليك {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} [البلد: 8] فما قيمة ثروة نعمة العينين؟ كم تدفع لها؟ ألست اليوم بخيل؟ حسنًا فإن الله يطالبك بثمن هذه النعمة وإلا سُلبتها، كم تأخذ وتعطينا عينيك؟ أم كم تنفق من المال لنعمة العينين التي بهما تبصر؟

يقول الله جل وعلا: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} يبصر بهما ويرى فيهما هاتان العينان تؤديان إلى القلب ما نظر إليه الإنسان، وأعظم رائد للقلب العين.

ولذلك يا عباد الله من أراد أن يصلح قلبه فليغض بصره، فإن أعظم رائد للقلب، أعظم موصل للقلب العين، ولذلك يجد الإنسان في خيالاته تلك الصور التي التقطتها عينه، عدسة العين فإذا نظر إلى محرم كان آثما وإذا نظر إلى ما يقربه إلى ربه كان غانما.

{أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } [البلد:8، 9] لسانًا ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق.

ولذلك ذكر الشفتين، نعمة عظيمة أن تلجم لسانك، أن تضبط نطقك، ألا تتكلم إلا بما يحب ربك، هذه من نعم الله العظيمة لأنه بهذا اللسان والشفتين يستطيع أن يعبر عما في نفسه، {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: 4] ولولا هذا ما استطاع.

فلو كان لا يتكلم فكيف يعبر عما في قلبه، كيف يعلم الناس بما في نفسه، اللهم إلا بإشارة يتعب المشير، ويتعب الذي أشير إليه في فهم المراد، ولكن من نعمة الله أن جعل له لسانًا ناطقا، وشفتين يضبط بهما النطق.

ولتروا إلى أخواننا وأحبائنا الذين فقدوا هذه النعمة، وأنعم الله عز وجل عليهم بهذا الأمر، وانظروا إلى لغة الإشارات التي ربما ترونها في بعض البرامج حينما يخاطبون الصم والبكم، انظروا إلى المعاناة التي تكون للموصل والموصل إليه حينما يصنع هذا، واحمدوا الله عز وجل على نعمة اللسان والشفتين، فهذه من عجائب قدرته سبحانه وتعالى.

يأتي النطق من هواء يكون من الرئة، يخرج من مخارج معينة، إن مر بشيء صار حرفًا، وإن مر بشيء آخر صار حرفًا آخر، هواء واحد من مخرج واحد، لكن يمر بشعيرات دقيقة في الحلق وفي الشفتين وفي اللثة، هذه الشعيرات تكون بعد ذلك ناتجة للحروف.

فتجد مثلاً الباء والشين كلها بهواء يندفع من الرئة ومع ذلك تختلف باختلاف ما تمر عليه في هذا الفم، ومخارج الحروف المعروفة يدرسونها في علم الأصوات، وفي علم التجويد، ومعلوم أن لكل حرف ميزان وهذا من تمام قدرة العليم المنان سبحانه وتعالى.

{وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } [البلد:9، 10] النجدان سبيل الخير وسبيل الشر {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: 3] هذا الإرشاد لسبيل الهدى وبيان لطرق الضلال.. {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} أيحسب أن لن يظهر ما فعله؟ أن لا يؤاخذ بذلك؟

أيحسب أنه حينما كان ما كان منه أنه لن يؤاخذ على فعله؟ ألم يرى هذه النعم؟ نعمة العينين، ونعمة اللسان والشفتين، ونعمة هداية الله له.. فبيَّن له سبيل الرشاد، بيَّن له سبيل الشقاء وسبيل السعادة.

ولاحظوا التعبير بالنجدين؛ النجد كما نطلق على أرض نجد، أرض الحجاز، والنجد هو الأرض المرتفعة، ورحم الله العلامة ابن القيم حينما يقول النفس جبل وعر، ويتأول هذه الآيات.

نعم؛ جبل وعر {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} فإنهما جبلان، إما جبل خير وإما جبل شقاء.. ولذلك جاء بعد ذلك {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} [البلد:11] فإما أن تكون هاهنا على هذا الطريق؛ طريق النجاة وهنا تحتاج أن ترتفع على شهوات نفسك، نجد مكان مرتفع، هُدي الإنسان إليه، أرشده الله تبارك وتعالى إلى ذلك.

فالأمر واضح بيِّن، بيَّن طريق الجنة، واضح والجنة في الأفق مرتفعة، ينبغي أن تتسلق لها جبل النفس حتى تصل إليها، وكذلك الإنسان الذي يريد النار فإنه كذلك يجازى بمعاناة في الدنيا،

هنا لا يعاني من نفسه الأمارة، ولكن هنا يعاني من الدنيا، والمكابدة من أجلها وللأسف تكون النهاية إلى النار.

فلا اقتحم العقبة

إذًا هذا معنى مستفاد جيد في اشتقاق النجدين لسبيل الشقاء وسبيل السعادة، لطريق الجنة وطريق النار.. وجاء من بعد ذلك البيان المفصل حين قال سبحانه وتعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} طريق النجاة؛ ينبغي أن يقتحم هذه العقبة الكؤود التي لا يجوزها المثقلون، لابد أن تتخفف من حمل الدنيا، من آثار النفس، من أوزار النفس.

لا بد أن تقتحم ذلك، لابد أن تكون عندك الهمة والمجاهدة للنفس والهوى والشيطان في أعمال البر.. لذلك جعل الله هذه العقبة التي يُتكلف صعودها مثالاً واضحًا بينًا لأهمية مجاهدة النفس، كما يتسلق هواة تسلق الجبال الجبال في أوقات، وبعد معاناة ومشقة بالغة.

وهكذا أنت ينبغي أن تكون عندك الهمة لترتقي.. ولاحظوا التعبير بالجبل لأن الإنسان كلما أرتفع تزداد مشقته، ولكنه في النهاية يصل إلى قمة الجبل، فهذه همم توصل للقمم.

وهذا لا يكون إلا إذا قال لنفسه التي تأمره بالتكاسل والتقاعد؛ أن يقول لها لا، فيقتحم العقبة.. اقتحام العقبة يكون بأي شيء؟

بيَّن الله جل وعلا لنا ذلك بالوصفة العملية فقال سبحانه وتعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} أي الإنسان الذي كان يقول أهلكت مالًا لبدًا؛ هلا اقتحم العقبة؟ هلا تجاوز هذه العقبة بمشقة؟

هذا الجبل الوعر الذي هو شاق على النفوس، الذي لا يتجاوزه الإنسان ولا يقوم به إلا إذا كان عنده نية صادقة واستعداد ومحفزات.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ} [البلد: 12] وهذا استفهام للتشويق والتفخيم. أي ما الذي أعلمك شأن هذه العقبة ؟

{فَكُّ رَقَبَةٍ} [البلد: 13] فك رقبة أي فكاك الأسير، والأسير ربما لا يفكه العدو إلا بفدية مالية، فلذلك وافق ذلك المعنى الذي بينه الله عز وجل في هذا الإنسان البخيل، بخيل النفس الذي لا يستطيع أن يقاوم شهوات نفسه في جمع المال فقال {أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا} ثم جاء {فَكُّ رَقَبَةٍ}.

وفك رقبة تحتاج إلى فدية مالية، وربما تكون هذا الفدية باهظة الثمن، فلا يقتحمها إلا من كان عنده إيمان بالله، بأن يكون عنده يقين بأن الله هو القائل في الحديث القدسي "أنفق أنفق عليك" [صحيح البخاري(4684)] وأن النبيﷺ هو القائل "ما نقص مال عبد من صدقة " [الألباني، صحيح الجامع(3024)]

ولاحظوا {فَكُّ رَقَبَةٍ} في زمان العتق من النيران، فكُها من الرق، وأعظم الرق رق الشهوات {بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 81] سجن النفس، سجن الشهوة، سجن المعاصي، أفلا فككت رقبتك يا مسكين؟

فك الرقبة، وعليك بأن تفكها بأن تبذل الغالي والثمين، لا تدخر، لا تبخل، لا تضن، فإن الجزاء أن تعتق من النار، أن تفك رقبتك من النار، فيا عبد الله فك رقبتك، وخلص نفسك باجتناب المعاصي وفعل الطاعات، فعليك بفك الرقبة.

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقيق أو فك النسمة يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو؛ فإذا أعتق رقبة أعتقت رقبته، أعتق يده فأعتقت يده، أعتق رجله فأعتقت رجله، وهكذا..كل عضو بعضو.. فإذًا هذا سُلَم اقتحام العقبة؛ فك الرقبة لعتق رقابنا من النار.

{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} [البلد: 13] المسغبة القحط أو الغلاء أو المجاعة.. وما أحلى هذه الآيات في هذا الزمان، إطعام الطعام الذي هو أول مرسوم نبوي في المدينة " أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام " [الألباني، صحيح الجامع(7865)]

إطعام الطعام لا سيما للجوعى، لا سيما للفقراء في زمن الغلاء، إطعام الطعام للمحتاجين للمضطريين.. ولاحظوا أنه قيد الإطعام بهذا الوقت لأنه دليل على قوة الإيمان بالجزاء.

فالإنسان حينما يكون في شدة الناس تبخل، تجدها تجمع المال وتقول ندخره لليوم الذي لا نعرف كيف سيكون، وتراهم لا يشترون أي شيء حتى يأمنوا من واقعهم حتى يأمنوا من غوائل الدهر، والصوارف التي قد تصرفهم عن الاستمتاع بالحياة.

فتراهم في زمن المجاعة والقحط والغلاء يصنعون ذلك فإذا بهذا الإنسان يحقق معنى {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9] وهذا أعلى منازل الفضيلة في الإطعام، أن تطعم حال الشد والمسغبة.

تطعم من؟ قال: {يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} [البلد: 15] فالقرابة هنا لأنه إذا جمع بين الفضلين بين الصلة للقرابة، وبين إطعام اليتيم وكفالة اليتيم معلوم شأنها " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين " [الألباني، صحيح الأدب المفرد(100)] فإن هذا أعظم أجرا.

{يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} وقد قالوا: المقربة ليست فقط مقربة النسب، بل قرابة الجوار، بل قرابة الإسلام. {يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد: 15، 16] هذا المسكين المطروح على الطريق لا بيت له، هذا المسكين الذي لا يقيه من التراب لباسٌ ولا غيره، هذا المسكين ذو العيال، هذا المسكين المديون، هذا المسكين الذي ليس له أحد.

وقد قالوا المتربة هو البعيد، أي المسكين الغريب البعيد عن وطنه.. كل هذا يشمل معنى المتربة؛ مسكين محتاج لدينه، لعياله، لعدم وجود مسكن يؤويه، ولا لباس يلبسه، ولا مكان يجده لغربته. {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}.

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ..} [البلد: 17] لاحظوا هنا هذه الآية {..وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} تواصوا بالصبر على الطاعة، تواصوا بالصبر على ما افترض الله، تواصوا بالصبر على ما أصابهم، تواصوا بالصبر على الدنيا وعن شهواتها، وتواصوا فيما بينهم بالتراحم، وكان الرفق هو ديدنهم.

تواصوا بالمرحمة؛ دار الرحمة الآخرة، فتواصوا بترك الدنيا وطلبوا الآخرة. تواصوا بالمرحمة؛ بأن تكون في قلوبهم الشفقة " الراحمون يرحمهم الرحمن " [الألباني، صحيح الترمزي(1924)] تواصوا بالرحمة على عباد الله عز وجل، ومن ذلك أن أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر.. تواصوا بأسباب رحمة الله؛ كما قال النبيﷺ: " وأسألك موجبات رحمتك " [الألباني، السلسة الصحيحة(3228)] فتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.

لاحظوا هنا هذا المعنى:

أولاً: هذه أمور أربعة تقتحم العقبة وينجو صاحبها من النار؛ فك الرقبة أي أعتق رقبة، أو فك رقبته بأنه سعى في أسباب العتق من النيران.

أو العمل الثاني {إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} اليتامى والمساكين.

والأمر الثالث؛ الإيمان الصادق {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} إيمان صادق بالله وسوله، وآيات الله، ولقائه وبهذا يحي القلب.

وتواصى بالصبر مع المؤمنين المستضعفين تواصى بالثبات على الحق.. مع أهل المال أن يرحموا الفقراء والمساكين، وأن يسدوا خلتهم، ويقضوا حاجتهم.. تواصى بالمرحمة فرحم الضعفاء، ورحم العصاة ودلهم على الخير، فأمرهم بمعروف، ونهى عن منكر.

كيف نفك عقبة النفس

هذه المعاني الأربعة هي التي تفك بها العقبة التي هي عقبة النفس.

إذًا عندنا حل عملي؛ من يأتي يسألنا يا شيخ ماذا نصنع؟ نفسي الأمارة بالسوء تجعلني أتكاسل عن الطاعة، نفسي الأمارة بالسوء تجعلني أصنع بعض المعاصي المنكرة، نفسي الأمارة بالسوء لا تجعلني أرتقي في الدرجات... فأنا منذ زمان أريد أن أحفظ القرآن ولا أستطيع، أريد أن أتعلم العلم النافع وإذا بي أمشي خطوتين ثم أنقلب على عقبي وأنا وأنا .. ماذا أصنع ؟

أقول هذه وصفة رباعية قرآنية؛ عليك أن تفك رقبتك، عليك أن تسعى بأسباب العتق من النيران، عليك أن تبذل مالاً تفدي به نفسك.. فإن لم يكن عندك مال فاجعلها بالتسبيحات كما كان أبو هريرة يصنع؛ يفدي نفسه ويعتق رقبته كل يوم بثنتي عشرة ألف تسبيحة.

أطعم الطعام؛ فطعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي أربعة، وهكذا.. فأعطي جيرانك، وأعطي الفقراء من طعامك، ولا سيما اليتامى لأن النبيﷺ جعله سبب من أسباب لين القلب حين قال: " أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك " [الألباني، صحيح الجامع(80)]

والأمر الثالث: عليك بتجديد الإيمان " إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسألوا الله تعالى: أن يجدد الإيمان في قلوبكم" [صححه الألباني في صحيح الجامع(1590)] ليحيا القلب.

فبالإيمان وهذا بتجديد تجديد معاني لا إله إلا الله على القلب، سواء بالذكر اللساني بأن تكثر من قول لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، تقول لا حول ولا قوة إلا بالله.

إذا دعتنا النفس إلى الركود، إلى الغفلة، إلى العجز، إلى الكسل؛ قاومناها بالإيمان الصادق، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، فيحيا القلب.

ونوصيها بالصبر؛ فإن لم تصبر قلنا لها صابري فانظري لأهل الصبر وتفاعلي معهم أيتها النفس فكما أن هذا صائم ويكابد الصيام، فأنتِ كذلك صومي.

فكما أن هذا قائم ويكابد القيام {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} فأنتِ كذلك تكبدي.. ألم يقل الله جل وعلا: {إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الإنشقاق: 6]

إذًا تواصى بالصبر، اصبر، اصبر، اصبر واحتسب، اصبري واحتسبي، فاثبتي مهما كانت المغريات، مهما كانت الفتن، اصبري على حجابك، اصبري على نقابك، اصبري على ذكرك، اصبري على صلاتك، اصبري على غربة الدين، اصبري عندما يقول المتقول على الدين ما يقول، لا تحزني ولا تحزن، بل كابد ذلك بأن تُعلي للإسلام راية، بأن تكون أُحُد هذا الزمان، اثبت أحد.

وتواصى بالرحمة؛ {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: 54] لا تكن متكبرًا عبد الله، فإن النفس جبل وعر، ويعليها ويزيدها علوا كِبرُ الإنسان.. فتذكر أن الله الكبير، تذكر أن الله الكبير.

فيا من يثني صدره، ومن عنده شموخ الأنف، الله أعلى وأجل، الله أكبر.. فلا تتكبر، وإنما يرفع عنك ذلك أن تتواضع لا سيما في إطعام الفقراء والمساكين، وسد خلتهم، وقضاء حوائجهم، هكذا تخلص من آفاتك.

فإذا كنا نقول أن أخطر آفات النفس الكبر " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " [صحيح مسلم(91)] فوالله الذي لا إله غيره إن إطعام المسكين المترب علاج لداء الكبر.

وإذا كنا نقول أن في النفس المتكبرة هذا النوع من الشموخ والأنفة ومعاملة الناس بالجفاء؛ فيا أيها الجافي رقق قلبك بأن ترحم الفقراء والمساكين.

اللهم أحيني مسكينا، وتوفني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين أصحاب المسكنة إلى الله تبارك وتعالى، أصحاب السكينة.

فهكذا هذا علاج عظيم لهذا الداء، ويا أيها المعجب بعمله، يا من تقول أهلكت مالاً لبدا، أتحسب أن الله لم يرك؟ ألم تعلم أن الله أنعم عليك؟

يا أخي تذكر نعمة الله.. انظروا والله الذي لا إله غيره هذه السورة قالت أن أعظم عقبة النفس، وآفات النفوس الكبار جاءت هذه السورة شارحة لها. أليس الإنسان الذي يقول أهلكت مالا لبدا هذا عنده داء العجب ؟

أليس الإنسان الذي عنده نوع من الغطرسة وشموخ الأنف ألم يذكره الله جل وعلا بمعنى يعالجه حين ذكر المسكين ذا المتربة، وحين ذكر التواصي بالمرحمة؟ أليس علاج اتباع الهوى هو التواصي بالصبر؟

لأن صاحب الهوى يريد أن يتحرك، وتقول له أصبر، يقول لا لا لا أستطيع، لا اصبر، اصبر لا تتحرك الآن وإنما اثبت، وعليك أن تتأنى.

أليس علاج أصحاب الشخصيات العاطفية رقة قلوبهم بتعلقهم بربهم تبارك وتعالى؟ ألم يذكرهم بهذا النعيم؛ يذكرهم بما يستوجب أن يكون القلب لله ليس لأحد، حين قال {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} ألا يرق قلبك أيها الإنسان الرقيق القلب؟

يا من مال قلبك لغير ربك، يا من تعلقت بغير ربك، {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} ألم يجرح قلبك؟ ألم يتصدع قلبك؟ ألم يتشقق قلبك؟ ألم يتقطع قلبك؟ والله يقول ألم ألم، يا رب مالك يا رب تعدد نعمك علينا {إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: 34]

يا رب يكفي فقط أن نقلب أعيننا يمنة أو يسرى، بل {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذريات: 24] فلا نحتاج إلى تعداد تلك النعم، ولكن يصدع قلبك بألم، ألم، {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} ثم بعد ذلك يكفر بي.

{وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} [البلد: 9] ثم بعد ذلك ينطق بما يعاديني به.. {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: 10] فيختار طريق الشيطان، يختار طريق الضلال، ويترك طريق ربه الذي يتودد إليه.

يالقسوة القلوب {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ..} والله يا رب لنصبرن.. لنصبرن على طاعتك، ولنريك ربنا ما نصنع، لنصبرن ولنصتبرن {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65] لا أعلم لك سميًا يا رب.

{..وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ} ولاحظوا القرآن كثيرًا ما يقول {الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} القرآن يقول: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:3]

هنا قدم الصبر؛ هنا قدم الصبر إشارة إلى الصبر على هذه الأعمال الصالحة من فكاك الرقاب، وإطعام الطعام، من رحمة الناس {وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ}

{وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ} لأنها وقود الإيمان، الرحمة وقود الإيمان، فإذا ما حصلتها حصلت ما يجعلك تتحرك وتسارع، وتستطيع المكابدة بقوة واقتدار.. فاللهم نسألك موجبات رحمتك.

أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [البلد: 18] أولئك أصحاب الميمنة أي أصحاب اليمين.. فاللهم اجعلنا منهم يا رب.. أولئك الذين يتلقون كتابهم بيمينهم، وأولئك لهم اليمن أي لهم البركة، أصحاب الميمنة أصحاب البركة.

الميمنة هنا فيها هذا المعنى وذاك؛ قالوا هم أصحاب الميمنة لأنهم أوتوا كتابهم بأيمانهم.. قالوا: هم أصحاب الميمنة لأنهم ميامين على أنفسهم. قالوا: وأصحاب الميمنة لأن منزلهم على اليمين.

{أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} قلنا تأتي في اللغة من اليمن الذي هو ضد الشؤم، وتأتي بمعنى جهة اليمين، وحمل كلمة الميمنة على معنييها هو الأحق بالتدبر، فكلاهما حق.

أصحاب الميمنة في مقابل أصحاب المشأمة، فأصحاب اليمين هم الذين كما قال يحي بن سلام كانوا أهل بركة، وكانوا أهل غلبة لأنفسهم فاستحقوا الجزاء من جنس أعمالهم أن يكونوا من أصحاب اليمين. وهم في بركات الجنة بركات النعيم.

ثم قال جل وعلا: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} [البلد: 19] الذين كفروا بالقرآن، الذين كفروا بالآيات الكونية أمامهم، كفروا بآيات الله فأدركوا عظمتها، وفهموا دلالتها، ثم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: 14]

جحدوها كبرًا آفات النفوس، جحدوها اتباعا للهوى آفات النفوس، جحدوها اغترارا بزينة الدنيا، حب الدنيا رأس كل خطيئة أعظم آفات النفوس.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} هم أصحاب الشؤم فالشؤم يلازمهم، هم أصحاب الشمال، الذين يأخذون صحف أعمالهم يوم القيامة بشمائلهم، ومن وراء ظهورهم، لأنهم كانوا مجرمين.

بل كانوا غلاة في إجرامهم فجُزوا من جنس أعمالهم. لمَّا كانوا في سجن النفس، لمَّا كانت أنفسهم الأمارة متسلطة عليهم جُزوا بنار مؤصدة {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ} [البلد: 20] أي مغلقة عليهم فلا مخرج لهم منها.

فوصفت النار بأنها مؤصدة مغلقة، كما أن هؤلاء أغلقوا على أنفسهم سجن الشهوات فجُزوا بسجين، وجُزوا بنار مؤصدة، مغلقة، فيا عبد الله فك رقبتك، فيا عبد الله تخلص من النار بعتق رقبتك من تلك النار المؤصدة بأن تتبع هدايات هذه الآيات.

هذه هى الهدايات:

أولاً: كن عند الله شريفا فكابد نفسك. كما لمكة شرف، وكما لزمان النبي شرف، وكما للنبيﷺ من شرف، فإذا أردت أن تكون في ركاب هؤلاء وأن تكون شريفًا وجيها؛ فكلما قلت لنفسك لا، وزادت مجاهداتك، زادت منزلتك حتى تُبلغ الفردوس الأعلى. هذه الهداية الأولى.

والهداية الثانية: اعرف حقيقة نفسك. فأنت من أنت ؟ خلقت في هذه الأنكاد، وهذه المشاق، فخلص نفسك وأرح نفسك بسعيك لآخرتك، فحينها تجد الراحة.. فالراحة في مكابدتها في الدنيا، مكابدة النفس، وراحتها أريد كما كان السلف يقولون.

الأمر الثالث: انفق يُنفق عليك. لتخلص رقبتك؛ ابذل الغالي والنفيس من جهد، من مال، من عرق، من شيء تخدم به دينك لتنجو من عذاب ربك.

رابعًا: عليك أن تتجاوز عقبة العذاب وتقتحم ذلك بتحقيق المعادلة الرباعية؛ {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} بأي شيء فك رقبة، وإطعام، وتواصي بالإيمان، وتواصي بالصبر والمرحمة.. تحقيق الإيمان وبالتواصي بالصبر وبالمرحمة.

وأخيرًا خامسًا: خلص رقبتك من سجن الآخرة بأن تكون مجاهدًا لتلك النفس في الله تبارك وتعالى.

الواجب العملى فى تدبر سورة البلد

نريد كواجب عملي في تدبر سورة البلد:

أولاً: إذا كان الله تبارك وتعالى تحدث بشأن المكذب بيوم الدين لإقناعه في سورة التين؛ وقال سبحانه وتعالى: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين:7، 8]

ثم تحدث عن المكذب بيوم الدين بأسلوب الحديث عن الإنسان بوجه عام؛ فقال: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ} [القيامة:3، 6] فتكلم عن هذا المكذب بالدين بعد ذلك في سورة القيامة.

ثم واجه المكذبين بيوم الدين بأسلوب الخطاب في سورة المرسلات فقال: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} [المرسلات:7] وقال: {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ} [المرسلات:20]

ثم جاء في سورة ق هكذا بترتيب نزول السور؛ أولاً سورة التين السورة 28 من حيث النزول.. ثم سورة القيامة السورة 31 من حيث النزول... ثم سورة المرسلات السورة 33 من حيث النزول.

ثم سورة ق هي السورة التي قبل سورة البلد والله تبارك وتعالى يقول في سورة ق: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ} [ق:5] فخاطب هؤلاء المكذبين بيوم الدين بأسلوب الحديث عن الغائبين.

ثم هنا في سورة البلد يتحدث عن المكذب بيوم الدين المنكر له بأسلوب الحديث عن الغائب إعراضًا عن مواجهته بالخطاب، ولا يخفى ما في أسلوب مواجهة المكذب بيوم الدين من تكريم وتأنيس، أن خاطبه بأسلوب الغيبة فهذا واجب تربوي دعوي.

حينما نريد أن نواجه عيبًا معينًا في آخرين فلنستخدم ضمير الغيبة، نستخدم ضمير الغيبة، استخدام أسلوب ما بال أقوام، هذا هو الأنفع.

الأمر الثاني: اليوم بعد سماعك لهذه السورة إن لم تتصدق بصدقة فكأنك لم تسمع شيئًا.. ألم تهز أركانك ما في هذه السورة من مصدعات؟ لاسيما قول الله جل وعلا على لسان هذا المكذب، على لسان هذا المارق، حينما {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا}

فإذا كان هو أنفق وأنت أصلاً لم تنفق فكيف بك؟ إذا كان هذا يَمُن بعمله وهذه من الخيبة، ولكن كيف ولم تنفق أصلاً؟ فتصدق بصدقة كواجب عملي.

ثالثًا: اقسم على نفسك بشيء تفعله في يومك وليلتك.. في هذا اليوم أو في هذه الليلة تقسم على نفسك بعمل صالح فذ كبير على معنى تدبرك لقوله تبارك وتعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}.

وأسأل الله جل وعلا لنا ولكم الشرف والوجاهة في الدنيا.
سورة البلد سورة الشرف.
سورة البلد سورة المكابدة.
سورة البلد سورة فقه مقاومة النفس.
سورة البلد سورة تمهد لتزكية النفس وهي سورة الشمس..
وهذه تكون في يومنا القابل إن يسر الله البقاء واللقاء.
فستذكرون ما قلت لكم، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد.
وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.